الحسن (عليه السلام) إمام مبدأ

وصفات الموحى إليه كونه بصائر وهدى ورحمة، وكل هذه الصفات واقعة في إطار حفظ النبي (صلى ا عليه وآله) من الهوى، {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى [3] إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى [4] ، فالنتيجة هي أن ما يصدر عن النبي (صلى ا عليه وآله) ليس بهوى، بل هو وحي فيه بصائر وهدى ورحمة، وهو (صلى ا عليه وآله) متجرد في ذاته عن كل العناوين الشخصية أو العاطفية أو النسبية أو المحسوبية أمام الحق، بل كان كلامه (صلى ا عليه وآله) {أتقى الناس من قال الحق فيما له وعليه} تجسيد لأفعاله وسلوكه في كل شيء، وهذه المقدمة تفيدنا كثيراً في فهم حديث النبي (صلى ا عليه وآله)، { الحسن والحسين إمامان إن قاما أو قعدا}[5] ، لأنّ ما يصدر عنه (صلى ا عليه وآله) هو وحي إلهي، فلا يمدح أو يصف إلا في دائرة الحق والاستحقاق، وعلى هذا الأساس عندما يتحدث عن الحسن والحسين (عليهما السلام) وهما أبناؤه فلا ينطلق عاطفياً في وصفهما محاباةً أو ممالأة، بل لاستحقاق تام للوصف عن أهلية كاملة صادرة من معصوم، يريد أن يوجه للأمة خطاباً رسالياً، ليعرفها بعظمة هاتين الشخصيتين، ولا يوجد أعلى رتبةً وأوجز ألفاظاً وشمولية منصب من وصفهما بالإمامة، الذي يحمل البُعد العقدي والقيادي والمعنوي، وخاصية الإمامة لها ميزات عديدة:

الأولى: عقدية الإمامة.

الإمامة مسألة عقدية في الإسلام، لها طابع شمولي باعتبارها خلافة إلهية لإنسان كامل، يعلم ما يحتاج إليه الناس في كل شؤونهم، ومن آثار هذه الخلافة الإلهية تحقق الحكومة والخلافة الظاهرية، وقد بينت النصوص الإسلامية حقيقة الإمامة، قال الإمام الرضا (عليه السلام) :{ إنّ الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أس الإسلام النامي وفرعه السامي}[6] ، فكون الإمامة أس الإسلام يعني جزئيتها من الدين وهو تعبير آخر عن كونها مسألة عقدية.

الثاني: نصية الإمامة.

النبي (صلى ا عليه وآله) عندما يقو:{لالحسن والحسين إمامان..}، يبين أنّ الإمامة قائمة على مبدأ النص، الذي طبقه (صلى ا عليه وآله) على إمامة الحسنين (عليهما السلام)، لكون النص منهج قرآني مستقى من قوله تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ

إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[7] ، وقد ركز ا تعالى على الجانب السلوكي لمضمون هذه الآية في التعاطي مع ما يصدر من النبي (صلى ا عليه وآله)، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا }[8] ، فهذا يعني لا بدية الالتزام بما يصدر منه (صلى ا عليه وآله) لأنه من ا تعالى: {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ} [9] ، فالنتيجة أن تنصيص النبي (صلى ا عليه وآله) بالإمامة هو من ا تعالى وليس من النبي (صلى ا عليه وآله).

الثالث: الإمامة مبدأ ثابت.

النبي (صلى ا عليه وآله) يوجه الأمة إلى أنّ موقع الإمامة لا يتأثر بالظروف والمتغيرات السياسية التي تمر على المجتمع الإسلامي، {الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا}، فالحسن (عليه السلام) إمام عقدياً، وإن لم يمارس المواجهة العسكرية والخلافة الظاهرية وتسلم إدارة شؤون الدولة، وأقعدته الظروف عن ذلك، وكذلك الحسين (عليه السلام) إمام حتى لو قام وحمل راية الجهاد، فالإمامة مبدأ عقدي منحه ا لإنسان كامل معصوم، يشخص المصالح والمفاسد من منطلق إلهي.

الرابع: حافظية الإمامة للأمة.

النبي (صلى ا عليه وآله) عندما يقول: { قاما أو قعدا}، فهذا إخبار غيبي لما يحدث من فتن في عصر هذين الإمامين (عليهما السلام) وتخاذل الأمة عن نصرة مواقفهما المبدأية التي تصب في مصلحة الإسلام ورفعة شأنه، وقد أشار النبي (صلى ا عليه وآله) إلى المخرج من هذه الفتن في الساحة الإسلامية في عصري الحسنين (عليهما السلام) وهو الرجوع والأخذ بالإمامة لأنها تحفظ الأمة من التفرق والتشرذم، قالت السيدة الزهراء (عليها السلام):{ فجعل ا الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، ....وإمامتنا أماناً من الفرقة}[10] ، فالإمامة صمام أمان يحفظ الأمة من الفرقة والاختلاف، وهذا درس كبير يعلمه لنا الرسول (صلى ا عليه وآله) في التعاطي مع الفتن والاختلافات في كل عصر باعتبار أنّ الحل فيها يكمن في الرجوع إلى الإمامة، التي تمتد زمانياً إلى يوم القيامة، قال النبي (صلى ا عليه وآله):{من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية}[11] ، أي في كل زمن إمام يجب معرفته عقدياً والأخذ بتوجيهاته أو من ينوب عنه من المراجع والقيادات الإسلامية المؤهلة، وما تشهده الساحة الإسلامية من حفظ للصف الإسلامي في أكثر من موقع في العراق وإيران ولبنان وغيرها من الدول الإسلامية يرجع إلى دور العلماء في الحث على الالتفاف حول الإسلام ومبادئه، لحفظ وحدة المسلمين وتماسكهم.

الدور التكاملي للحسنين (عليهما السلام).

هناك روايات متعددة عن النبي (صلى ا عليه وآله) يذكر فيها دور وخصال الحسنين معاً، وهذا يحوي أسرار عظيمة منها الإشارة إلى الدور التكاملي في الجانب التنفيذي وإصلاح الأمة، فدور ومواقف الإمام الحسن (عليه السلام) خصوصاً الصلح كشفت أقنعة شخصيات ينظر لها بمنظار قيادي وديني، وبالتالي مهدت وهيأت لثورة الإمام الحسين (عليه السلام)، وهذا يؤكد صحة المقولة: أنّ ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) حسنية قبل أن تكون حسينية.

معاناة الإمام الحسن (عليه السلام).

معاناة الإمام الحسن (عليه السلام) تتركز في عدم معرفة الأمة بحقه في كونه إمام زمانهم الذي لا يُكتفى بالاعتقاد بإمامته أو معرفته عقدياً من دون العمل بلوازم هذه المعرفة من خلال الطاعة، قال الإمام الباقر (عليه السلام) :{ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى الطاعة للإمام بعد معرفته}[12] ، وقد طرح الإمام الحسن (عليه السلام) للأمة هذا المعنى عندما قَبِل الصلح، فسأله رجل عن ذلك، فقال:{ ألستُ حجة ا تعالى ذكره على خلقه، وإماماً عليهم بعد أبي ؟ فقال الرجل : بلى. قال (عليه السلام) : ألست الذي قال رسول ا لي ولأخي : الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا ؟ قال الرجل: بلى، قال (عليه السلام): فأنا إذن إمام لو قمت، وأنا إمام إذا قعدت} ثم قال (عليه السلام):{ إذا كنت إماماً من قبل ا تعالى ذكره لم يجب أن يُسفه رأيي فيما أتيت من مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً ، ألا ترى الخضر (عليه السلام) لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى (عليه السلام) فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه، حتى أخبره فرضي، هكذا أنا، سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه}[13] . فمن الواضح أنّ الإمام الحسن (عليه السلام) كان يعاني من الفئة التي لا تعطيه حقه من المعرفة والطاعة، وهذا منشأ بخس حقه من الأمة.

درس من سيرة الإمام.

إنّ الدرس الذي نتعلمه من سيرة هذا الإمام هو أنّ عقدية الإمامة لا بد أن تكون حاضرة في فكرنا النظري بالدليل والبرهان لتنعكس في سلوكنا فتتحول إلى طاعة تتحرك كقيمة سلوكية في واقع حياتنا، تُعبر عن إرادة جدية وعزيمة حقيقية نحو تغيير الذات، وعندها يتحقق التغيير الإلهي في ذاتنا،

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[14] ، وشهر رمضان فرصة للتغيير لتوفر كل العوامل الإيجابية من فتح باب التوبة ومضاعفة الحسنات والأعمال الصالحة والرحمة الإلهية والبركات الدائمة، وأيضاً انتفاء كل العوامل السلبية من غل الشياطين واندحارهم، نسأل ا أن يوفقنا والمؤمنين لاستثمار أوقات شهر رمضان فيما يرضيه ويصلح حالنا ويُغير سلوكنا.